الفصل الأول

القرآن معجزة التنزيل

يقول الله تعالى :
قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء : 88]

في هذه الآية يتحدى الله العالمين أن يأتوا بمثل معجزة القرآن ، والمعجزة أمر خارق للعادة يُظهره الله على يد نبي تأييداً لنبوته.

وتتفاوت المعجزات في قدرها ، فشفاء المرض العُضال قد يكون معجزة ، ولكن رد البصر معجزة بلا جدال ، أما إحياء الموتى فذلك معجزة كبرى!

* المعجزات والأديان :

أرسل الله تعالى منذ فجر الخليقة - الأنبياء والمرسلين، مُبَشِّرين ومُنْذِرين، وما من أمة جاءها البشير النذير إلا حاولت وكابرت – عدا قلة آمنت به – وما كانت لتؤمن إلا أن ترى الخوارق والمعجزات ، تلمسها وتراها رَأي العين!

كان ذلك شأن " بنى إسرائيل" مع نبيهم موسى عليه السلام ثم كان ذلك شأنهم مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذي جاء أساساً ليصحح ما انحرف ، ويُقَوِّم ما اعْوَجَّ في عقائد وأفعال بنى إسرائيل (المترجم: جاء على لسان السيد المسيح عليه السلام: "لم أُرْسَل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة" [إنجيل متى 24/15]. ولقد أشار القرآن الكريم إلى رسالته إلى بني إسرائيل فقال:

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ(

[آل عمران: 48 – 49].

فما كان منهم إلا المجادلة التي تعبر عنها هذه الفقرة من إنجيل متى:

" حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين : يا معلم! نريد أن نرى منك آية ، فأجاب ، وقال لهم : جيل شرير وفاسق ، يطلب آية، ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي" [إنجيل متى 12/38-39]

(انظر كتاب المؤلف: " "what was the Sign of Jonah)

ومع ذلك أيد الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام بالعديد من الخوارق والمعجزات التي روتها الأناجيل ، وأثبتها القرآن الكريم حيث يقول :

إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(

[المائدة: 110]

أيد اللهُ سبحانه وتعالى رسوله عيسى عليه السلام بهذه المعجزات لئلا تكون لبنى إسرائيل حجة على الله بعد رسوله إن هم لَجُّوا في عنادهم ، وتمادَوْا في كفرهم!.

* معجزة الإسلام :

وبعد قرابة نحو ستة قرون بعث اللهُ رسوله محمدَ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة ليجهر بدعوته إلى العالمين كافة إلى آخر الزمان (ويتضح عموم رسالته من قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ) [سبأ : 28]، وقوله تعالى: (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) [الأعراف :158]،وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: 107]، وقوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [الأحزاب : 40]، وفي الحديث الشريف: " كان كل نبي يبعث في قومه خاصة وبُعِثتُ إلى كل أحمر وأسود")، فإذا بالتاريخ يعيد نفسه ، ويقف مشركو مكة ومعهم اليهود والنصارى مواقف بنى إسرائيل من عيسى عليه السلام فيطلبون منه الخوارق والمعجزات! سنة الله في خلقه التي لا تتبدل ولا تتحول!.

بل سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم آيات بعينها:
وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً [الإسراء:90 – 93].
وعلى قدر سفاهتهم في مطالبهم كان رَدُّ السماء توجيهاً للرسول صلى الله عليه وسلم بالاستعلاء على جدل أولئك المنافقين ولجاجتهم، فالمعجزة الكبرى ماثلة بين أيديهم ألا وهي: " القرآن الكريم "، وفي طياته آيات بينات، كل منها دليل على صدق الرسالة أمام كل الأجيال إلى قيام الساعة: (**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** [العنكبوت : 51]

* القرآن هو المعجزة :

يسوق لنا المولى سبحانه وتعالى البراهين الدالة على إعجاز القرآن، وأبلغها جميعاً أمران:

الأمر الأول: أمية الرسول صلى الله عليه وسلم : .

نجد ذلك في قوله تعالى: (**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** .
[العنكبوت : 48]

فلم يكن الرسول الكريم ليعرف القراءة والكتابة ، ولا مجرد التوقيع باسمه الشريف !؛ ولو عرف عنه شيء من ذلك ما سكت عنه المشركون ، ولا المرجفون في زمانه ، وحتى يومنا هذا ، ولأقاموا الحجة على أنه ربما ألَّف القرآن بما لديه من علم وثقافة واطلاع ، أو ربما اقتبسه من دراسات اليهود والنصارى ، أو ربما اطلع على التوراة والإنجيل والزبور (المترجم: التي اختفت مصادرها الأصلية تماماً)، أو ربما تعمق في فلسفات أرسطو وأفلاطون ، ولكن أشد أعداء الإسلام ونبيه لم يَدَّع عليه مثل هذا الادعاء ، وقد أجمع على أميته المؤرخون من غير المسلمين ، كما لا ننسى أنه من الثابت أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لم يترجم إلى العربية قبل القرن العاشر الميلادي ، أي : الرابع الهجري.

الأمر الثانى : تجانس النص القرآني (أكثر من 6000 آية) .

اقرأ القرآن، وتدبره، وقلِّبه من أي وجهة تريد، تصل دائما إلى نفس النتيجة: " أنه ليس بقول بشر"، فلا يمكن لبشر أن يواصل تأليف كتاب، ويستغرق جمعه 23 عاماً من بداية الوحي إلى إتمام الرسالة، يُبْتَلى خلالها بأشق ما مَرَّ به نبي مُرْسَل، دون أن تتقلَّب أفكاره، وتتبدَّل مشاعره، وتختلف أفكاره، وتتفاوت تعبيراته، وما كان هذا شأن النصِّ القرآنيّ، فعلى الرغم من نزول آياته مُنَجَّمة، أي مُفَرَّقة، في شتى الأوقات والمناسبات، فقد اجتمع القرآن عند اكتماله، بترتيب سُوَرِه، وترتيب آياته في السور – كما هو الحال في المصحف – فما اختلف السياق والجَرَس المميز لكل سُوَرِه، ولكل سورة على حِدَة، بما اجتمع

فيها من آيات نزلت في أوقات ومناسبات متفرقة، وما تضاربت الحقائق والأفكار والتشريعات بين سورة وأخرى، بل تكاملت مع بعضها البعض، وفسر بعضُها بعضا، وليس هذا شأن أي كتاب بشري يُكتب، ويُجمع بهذه الكيفية، وطوال تلك المدة.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا [النساء : 82].

*** ناحية أخرى :**

ومن ناحية أخرى – كما سنرى في الفصل الثاني – يعرض القرآن ويشير إلى أمور تتصل بمعارف كونية، لم تكن معروفة وقت نزوله، ثم أظهرها وأكدها التطور والكشوف العلمية !

ولو كان القرآن من صنع بشر أُمِّيّ، أو حتى متعلم في ذلك الزمان البعيد لنَضَح بأفكار وخُزَعْبلات بدائية متضاربة!

لا غَرْوَ إذن أن يكون القرآن الكريم هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم في مواجهة المشركين، بل هو "معجزة المعجزات" التي يُدرك قدرها كل ذي حكمة وبصيرة وذوق أدبي، وصدق مع النفس**!**: (**بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** [العنكبوت : 49]

الفصل الثاني

القرآن المعجزة العلمية

* شهادة حق :

في عالم اليوم (ألف مليون) من البشر يؤمنون أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز ، بل إن من أَلَدِّ أعداء الإسلام من شَهِدَ بإعجازه ، فها هو ذا القس "بوسورث سميث" في كتابه "محمد والديانة المحمدية" (تسمية الإسلام بالديانة المحمدية ، والمسلمين بالمحمديين تسمية خاطئة لا تخلو من غرض خبيث) يصف القرآن الكريم بأنه "معجزة في صفاء الأسلوب وفي حكمته وصدقه"

(الناشر:عندما نقرأ مثل هذه الشهادة يَرِدُ على الذاكرة قول الشاعر العربي:

شهدت بفضلك كل العِدَا * والفضل ما شهدت به الأعداءُ!).

وهذا كاتب بريطاني آخر "آربرى" تصدَّى لترجمة القرآن يقول في تقديمه للترجمة:

"كلما أستمع إلى ترتيل القرآن الكريم ، أشعر كأني أنصت إلى نغم ينساب في لحن موسيقي ذي إيقاع متصل ينبض مع دقات قلبي ! "

ثم يستطرد – في مقدمته – بعبارات تشهد بإيمانه بالإسلام، وإن لم يعلن إسلامه!

أما "مارمادوك بيكثال" البريطانى الذي اعتنق الإسلام، فإنه يقدم ترجمته للقرآن بهذا الوصف:

"سيمفونية لا تُدانَى، ولا تُحاكَى، تستدر الدموع من المآقي، وتستثير أشجان النفس"

وقد صدرت ترجمته هذه بعد إسلامه، فلا نقطع أكان وصفه للقرآن في مقدمته بعد إسلامه أم قبلها!

ومن الأقوال المأثورة أيضا لغير المسلمين في القرآن:

- "كريستي ويلسون" في كتابه "تقديم الإسلام" (1950م): " ليس بعد الإنجيل (من وجهه نظره المسيحية) إلا القرآن، فهو أعظم الكتب الدينية تأثيراً، وأكثرها احتراما وتبجيلاً !!"

- "شيلليدي" في كتابه "يسوع في القرآن" (1913م): "القرآن بمثابة الإنجيل المحمدي (أبدينا رأينا في هذه التسمية من قبل) وأكثر الكتب المقدسة توقيراً بما فيها العهد القديم والعهد الجديد".

* إعجاب وانبهار بكتاب الله الخاتم :

ولو استطردنا سنجد العديد من مثل هذه الآراء، سواء من مؤيدي أو أعداء الإسلام على السواء، تؤكد الإعجاب والانبهار بكتاب الله الخاتم: القرآن الكريم، والذي رأي فيه الرعيل الأول – على عهد محمد صلى الله عليه وسلم – الجمال والجَزالة، ونُبْلَ الدعوة، وشرف الرسالة، برهاناً مُعْجِزاً من الله تعالى، فدخلوا في دين الله أفواجاً.

ولكننا سنجد دائماً متشككا مُعْرِضًا، يصمُّ أذنيه، ويُغْلق عقله وقلبه دون شهادة التاريخ، وأقوال المفكرين، وربما تعلل بجهله بالعربية ليبرر عجز بصيرته و ضعف إدراكه ما في القرآن من إعجاز ، ولا يرى دليلا على وجود الله، ولا على إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد تصدى القرآن لهذا النوع من الحوار، وخاطب الملحدين والمشككين، والمتشككين والمرتابين، والمترددين الذين آتاهم الله نصيباً من العلم قلَّ أو كَثُرَ، فظنوا أنهم قد بلغوا به من العلم نهايتَه!

تصدى القرآن الكريم لهم ليُقنعهم أن فوق كل ذي علم عليم ، فمهما ازداد علمهم ، وسما فكرهم ، فإنهم أمام إدراك حقائق الكون أقزام.

* أصل الكون:

دعوني أولا أطرح سؤالاً على علماء الفلك القابعين في مراصدهم يجولون بأبصارهم في الكون ، خلال أقوى ما ابتكر العلم من مجاهر (تلسكوبات):

أتدرون كيف بدأ الله خلق ما نراه من كون؟

سيجيب أحدهم باعتداد : حسنا – منذ بلايين السنين كان الكون الماديّ كتلة واحدة متماسكة ، وفجأة حدث انفجار عظيم في قلب هذه الكتلة ، فانطلقت نواتج الانفجار في كل مكان ، فتكونت منها المجرات ، التي ما فتئت تسبح في الفضاء اللانهائي!

وفي إحدى هذه المجرات تقع شمسنا وتوابعها من كواكب بما فيها الأرض التي نحيا عليها !

وهنا لا أملك إلا أن أتذكر الإشارة القرآنية إلى جرى الشمس المطرد في الكون، في اتجاه محدد لا يعلم منتهاه إلا الله، وكأن علماء اليوم قد أشربوا هذه الآيات من " سورة يس":

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس 38 – 40]

ثم يتابع عالم الفلك حديثه:

" إن الكون يتمدد باطراد، فتتباعد المجرات عنا سريعاً سريعاً، مما يدعونا إلى تطوير مجاهرنا وتقويتها، لنلاحق تلك المجرات قبل أن تغيب عن العيون"

ثم يختم حديثه مؤكداً – باعتداد – ما وصل إليه العلم من دقة في الملاحظة، وإتقان في الحساب!

وهنا أفاجئه بسؤال:

أتظن أن عربيًّا أمِّيًّا في البداوة البدائية منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام يدرك ما توصلتم إليه من أفكار عن "بداية الخلق" و "تمدد الكون" و "حركة الشموس والمجرات" ؟!

فيجيبني بإشفاق واستخفاف:

"كلا أنَّى لمثله أن يفهم شيئا من هذا ؟!"

فأحسم الحوار بقولي:

إليك إذن ما أوحِيَ إلى هذا النبيِّ الأميِّ (انظر إلى ما جاء في الإنجيل عن النبي الأمي المنتظر: " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقول:أقرأ هذا ، فيقول: لا أعرف الكتابة "(إشعياء 29: 2)، قارن هذه العبارة بقول محمد صلى الله عليه وسلم عندما جاءه جبريل، وقال له: " اقرأ" فقال " ما أنا بقارئ" وانظر كتاب المؤلف "ماذا يقول الإنجيل عن محمد صلى الله عليه وسلم" ؟!) في "سورة الأنبياء" عن بداية الخلق: **(أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ** [الأنبياء : 30]

وما جاء في "سورة الذاريات" عن الاتساع المستمر للكون:

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [الذاريات :47]

إن المخاطَب بتعبير "الذين كفروا" في الآية الأولى هو أنتم أيها الملاحدة من العلماء، وخاصة علماء الفلك والجغرافيا الذين وضعوا أيديهم على هذه الكشوف الكونية المبهرة، وأعلنوها للملأ ثم زاغت أعينهم عن رؤية ذلك كله! (في قول مأثور لتوماس كارليل: " في خِضَمِّ الأبحاث والتجارب نندمج في معاملنا إلى الحد الذي ننسى فيه خالق الكون الأعظم !! ")

أخبروني بالله عليكم: كيف يتأتَّى لأميٍّ لم يعرف في بيئته سوى شَظَف الصحراء منذ أكثر من 1400 عام أن يعرف شيئا من هذه المعارف الكونية إلاّ بوحي من خالق الكون ذاته ومبدعه سبحانه؟!

* الماء : أساس الحياة :

وأنتم يا علماء الحياة (البيولوجيا) يا من تكتشفون يوما بعد يوم جوانب الإبداع في خلق الكائنات وحياتها – أجيبوني: أين وكيف بدأت الحياة ؟!

سيجيب أحدهم – بثقة – كسَمِيِّه عالم الفلك من قبل:

" حسنًا، منذ بلايين السنين بدأت صورة بدائية للحياة المادية في مياه البحر تولَّد عنها البروتوبلازم (مادة البروتوبلازم هي أساس تكوين الخلايا الحية ، وفعاليتها مرهونة بوجود الماء 0وارجع في ذلك لأي مرجع في علوم الحيوان أو النبات)، الذي نشأت معه الأميبا وحيدة الخلية، ومن الماء – أيضا – نشأت كل الأنواع، أي أن الحياة لا تنشأ، ولا تستمر إلا في وجود الماء " فنمضي في تساؤلنا: متى أدرك العلم أن الماء هو أساس الحياة ؟!

لا تخرج الإجابة عن سابقتها " كان ذلك حديثا في القرن العشرين" فنمضي في تساؤلنا:

أكان في مقدور بشر منذ 14 قرنا، ولو كان عالماً أو فيلسوفاً، أو شاعراً – فضلاً عن أن يكون أُمِّياً – أن يتوصل إلى ما توصلتم إليه من مفاهيم ؟

ستكون الإجابة قطعاً – كسابقتها – بالنفي، إذًا هاكُمْ ما جاء على لسان ابن البادية صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن الكريم، في ذلك الزمان البعيد:

أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ [الأنبياء : 30]

ويتضح التعبير أكثر وأكثر في هذه الآية التي يقول الله فيها:

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [النور : 45]

لا ريب أن مثل هذه الكلمات من خالق الكون العظيم العليم منذ 14 قرناً – إنما هي موجهة أساسا إليكم يا رجال العلم والمعرفة لتجيب عن بعض تساؤلاتكم في عالم اليوم!

لقد كان المغزى العلمي لهذه الكلمات بعيداً تماماً عن ذهن من جرت على لسانه صلى الله عليه وسلم بوحى من الله في ذلك الزمان البعيد !

إن هذه الكلمات ما هي إلا دعوة لكم يا علماء اليوم لتبادروا بالإيمان ، ولتكونوا في طلائع المؤمنين، وإلا : فما أضلَّكم إذا أزاغتكم أهواء النفس عن المنطق السليم.

* زوجية النبات :

ثم يجيئ دور علماء النبات والحيوان بصفة خاصة ، والعلوم الطبيعية بصفة عامة؛ الذين وإن تبحروا وتعمقوا في طبيعة الأشياء والكائنات – ما زال منهم من ينكر وجود خالق كل شيء ! فنسألهم أن يفسِّروا لنا: من أين جاء الرسول الأميّ بهذه الآية وأمثالها ؟!

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّالاَيَعْلَمُونَ [يس : 36]

يقول "عبد الله يوسف علي" في ترجمته الإنجليزية مفسراً هذه الآيات:

" إن ظاهرة زوجية الكائنات تنطبق على كل الخلائق: الإنسان، والحيوان، والنبات، والمخلوقات الأخرى التي قد لا تتبادر إلى الذهن، فهناك أزواج من القوى المضادة في الطبيعة كالشحنات الكهربائية السالبة والموجبة ...إلخ ، بل إن ذرات المواد جميعاً من نواة موجبة تحيطها " إلكترونات" سالبة، أي أنها هي الأخرى أزواج".

المسلمون و الإعجاز : .

وبعد ... فآيات الكتاب الحكيم تتحدث عن نفسها، وتنطق بالإعجاز العلمي الذي لا يخطئه عقل عالم فطن، وهذه شهادة عالم فرنسي معاصر:

" ... مقولة أن القرآن من تأليف محمد – صلى الله عليه وسلم – لا يقبلها عقل؛ إذ كيف يتصور عاقل أن إنسانا أمِّيًّا يتحول فجأة لينطق بأعظم النصوص الأدبية العربية إلى يومنا هذا ؟!، ثم كيف يأتى في القرآن بحقائق وإشارات علمية يتعذر إدراكها لكل أهل زمانه، ويعبر عنها بدقة علمية تامة " (موريس بوكاي في كتابه: "القرآن والإنجيل و التوراة والمعارف الحديثة").

لقد بدأ اهتمامي بدراسة الإعجاز إثر محاضرة سمعتها وأنا طالب غَضّ عام 943 ، ألقاها العلامة والداعية المفوه عبد العليم صِدِّيقي أثناء جولته في جنوب إفريقيا ، ثم نُشِرَت المحاضرة بعنوان: "دور المسلمين في إحياء العلوم" (كتيب للاتحاد العالمي لجمعيات الدعوة الإسلامية بكراتشي) فأعادت إلى ذهني من جديد ما أثارته أول مرة من حماس لدراسة الموضوع!

وأقتبس هنا فقرات من تلك المحاضرة ، في معرض الدعوة إلى دراسة القرآن من منظور العلم ، وفاء وتقديراً لذلك الداعية العظيم.

" إن تأكيد القرآن الكريم على ضرورة دراسة العلوم الكونية لظاهرة فريدة في عالم الأديان ، فآياته تلفت أنظارنا مرارا إلى تنوع الخلق وروعته، وتحضُّنا على اكتساب المعرفة لنزداد إيماناً ، وتنبه الإنسان لأول مرة في تاريخ العقائد المعروفة إلى أن العالم مسخر له ، وأن عليه أن يكدّ ويسعى للانتفاع بنعم الله.

وهو يحثنا على التأمل في خلق الإنسان : تركيبا وسلوكاً وأنواعاً، وكذلك النبات: شكلا وخواصَّ وأنواعاً؛ أي أنه يدعونا لدراسة "علوم البيولوجيا".

كما يدعونا لدراسة نظام الكون وما به من موادّ وطاقة، وذلك مجال "علوم الفيزياء".

وإلى التأمل في خواصِّ المواد وتفاعلاتها، وذلك مجال "علوم الكيمياء".

وإلى التعرف على طبقات الأرض وما حوت من معادن، وما طرأ عليها، وذلك مجال "علوم الجيولوجيا".

وإلى استكشاف الأرض، وما بها من بحار وأنهار وجبال وسهول، وما يعمرها من حيوان ونبات، وذلك مجال "علوم الجغرافيا".

وإلى التدبر في تعاقب الليل والنهار، وتغير الفصول، وحركات الكواكب، ومواقع النجوم، وذلك مجال "علوم الفلك".

وأخيرا يحثنا على ملاحظة تقلب الرياح، وإثارة السحب، ونزول الأمطار وما إليها، وذلك مجال "علم الأرصاد الجوية".

ثم يمضى العلامة صِدِّيقِي ليقول:

"لا غَرْوَ إذن أن كان المسلمون – لقرون عدة – رواد العلوم والمعارف، حتى دار الزمن دورته، فغفلوا وتهاونوا، فأفلت منهم زمام القيادة إلى الغرب الماديّ الذي اندفع ليواصل ما بدأه المسلمون".

" لقد كان فضل المسلمين على المعارف الإنسانية "ثورة كبرى" لم تدع جانباً من جوانب المعرفة إلا أيقظته من سُبات، وحازت فيه قصب السبق، فرسالة المجتمع الإسلامي – كما حددها القرآن – هي اكتساب العلم ونشره؛ ليصبح المؤمن الحق هو العالِم المثقف، ولولا المسلمون ما بزغ في الغرب عصر النهضة، ثم عصر العلم".

"إن كل ما نتلقاه اليوم من علوم الغرب ما هو إلا نتاج مباشر لجهود العلماء المسلمين، والبشرية كلها مَدينة بما قدموه".

ثم يختم العلامة المفوه محاضرته القيمة بقوله:

"أؤكد أخيراً أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يقوم على الإسلام، وبالتالي يستمد تصوره من الوحي القرآني، ومن هنا لا يكون المرء مسلماً إلا إذا آمن بالقرآن، واتبع تعاليمه، تلك التعاليم التي توجب على المسلم أن يتأمل العالَمَ حوله، حتى يقوده ما كشف من حقائق إلى توثيق الإيمان بالخالق الأعظم، فالعلم والدراسة في الإسلام ليسا غاية في ذاتهما، بل هما وسيلة إلى غاية، وتلك بحق هي الغاية الأسمى للإنسانية في نهاية الأمر، والتي تتمثل في: (**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) [البقرة : 156]

* الدعاة والإعجاز:

لقد مَنَّ اللهُ عليَّ بتلقّي هذه الكلمات الطيبات من العلامة صِدِّيقي في محاضرته عام 1934م، وفي أواخر الثلاثينيات كنت أحفظها، وأستعيدها، وأُدخل عليها بعض التعديلات، وتحمست لدعوة الناس إلى ما جاء بها، فاتفقت مع معهد تبشيري على إلقائها في مناظرة مع الطلبة والأساتذة، ولم أكن أدرك في ذلك الوقت جسامة مهمتي كداعية مبتدئ يدخل في مناظرة مع مبشرين محترفين، ولقد أنجاني من تلك المواجهة تدخُّل رئيسي المسلم في العمل (كنت أعمل وقتها في محل بمحطة للسكك الحديدية بجنوب إفريقيا)، هدَّدَني رئيسي بالفصل إن مضيت قُدُماً في إلقاء المحاضرة، فآثرت السلامة، ولم أدر وقتها فداحة ما ارتكبته بهروبي من مواجهة الباطل، ولا ريب أن رئيسي المسلم كان هو الآخَر غافلا عما تحمله الآيات التالية من الوعيد:

قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [التوبة : 24]

ولا شك – للأسف – أن هناك الملايين من المسلمين الذين يُلجمهم الخوف على مصالحهم ومتاعهم الدنيوي عن المجاهرة بالدعوة إلى الإسلام، وما يعرفون من الحق، بل إن منهم من يتصدى لتثبيط الدعاة، وإخماد دعواتهم تحت شعار:"مقاومة التطرف"، ثم يدعون الإيمان والتقوى، أولئك الذين وصفهم الله بالقوم الفاسقين.

وبعد ... لقد لفت العلامة صِدِّيقي انتباهنا في محاضرته إلى ضرورة الاهتمام بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم ، في علوم الحياة ، والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والأرصاد وغيرها.

وفي السنوات الأخيرة تناول الكثيرون هذه الموضوعات من أمثال " موريس بوكاي" و "كيث مور" و "الشيخ الزنداني" وغيرهم، ولكن المجال لم يزل رحباً ممتداً، فالقرآن بحر من العلم، وفي زمن التخصص هذا ينبغي على العلماء المسلمين – كل في تخصصه – أن يسعوا لاكتناه جوانب الإعجاز ، وتقديمها في دراسات تشبع نَهَم شباب المؤمنين وشيوخهم حتى تكون لدينا – بإذن الله – موسوعات للإعجاز القرآني.
وختاماً أترك الحديث عن الإعجاز العلمي للعلماء المتخصصين، لا من المسلمين فحسب، بل من غير المسلمين أيضا إن التزموا الحيدة ، وأوجِّه اهتمامي في الفصول التالية إلى صور أخرى واضحة مباشرة لإعجاز القرآن، يدركها بسهولة كل من يقرأ القرآن، أو يستمع إليه بأذن صاغية، وحس مرهف، وعقل مفتوح.

الفصل الثالث

القرآن المعجزة القصصية

اختلاف التعبير القرآني عن غيره من النصوص :

يختلف التعبير القرآني اختلافاً تاماً عن كل النصوص الدينية الباقية بين أيدينا، كما يختلف عن أي تعبير بشري، وهو تعبير معجز لكل من يقرؤه بتدبر، وحتى ندرك هذا الوجه من إعجاز القرآن تعالوا أولا نوضح الفرق بين "التعبير البشري" و " التعبير القرآني"، وكنموذج للتعبير البشرى تعالوا نقلب صفحات "الكتاب المقدس" بعهديه: القديم والجديد، والذي اشترك العديد من البشر في وضع نصوصه.

تبدأ كل الروايات هناك بعبارات على نمط:

"يُحْكَى أن"، أو "في يوم من الأيام"، أو غيرها مما تبدأ به عادة روايات البشر :

1- " **في البدء خَلَق الله السموات والأرض**" [التكوين 1/1]

2- " **في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله**" [إنجيل يوحنا 1/1]

3- "**كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم**" [إنجيل متى 1/1]

4- " **قول الرب الذي صار إلى هوشع بن بئيرى في أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا وفي أيام يربعام بن يوآش ملك إسرائيل**" [يوشع 1/1]

5- " **وكان بعد موت يشوع أن بنى إسرائيل سألوا الرب قائلين مَنْ مِنَّا يصعد إلى الكنعانيين أوَّلاً لمحاربتهم"** [القضاة 1/1]

6- " **حدث في أيام حُكْم القُضَاة أن صار جوع في الأرض"** [راعوث 1/1]

7- " **كان رجل من رامتايم صوفيم من جبل أفرايم اسمه: ألقانة بن يروحام بن أليهو بن توحو بن صوف ، هو أفرايمى"** [صموئيل أول 1/1]

8- " **وكان بعد موت شاول ورجوع داود من مضاربة العمالقة أن داود أقام في صقلغ يومين"** [صموئيل ثاني 1/1]

9- " **وشاخ الملك داود، تقدم في الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ"**

[الملوك أول 1/1]

10-" **وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بضم إرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء في كل مملكته، وبالكتابة أيضا قائلاً "** [عزرا 1/1]

11- " **وحدث في أحشويروش، هو أحشويروش الذي ملك من الهند إلى كوش على مئة وسبع وعشرين كورة"** [أستير 1/1]

12- "**كان في سنة الثلاثين في الشهر الرابع، في الخامس من الشهر، وأنا من بين المسبيين عند نهر خابور أن السموات انفتحت، فرأيت رؤى الله"** [حزقيال 1/1]

عبثًا تجد في هذه النصوص تعبيراً يقرع الأسماع، أو يجذب الانتباه، فكلها تجرى مجرى المؤلفات الروائية التي نقرؤها كل يوم!

ولا غَرْوَ فهكذا يفكر البشر، ويتحدثون، ويكتبون، وهذه النصوص كلها مأخوذة من الكتاب المقدس (طبعة جمعية الكتاب المقدس، انظر كتاب المؤلف: " هل الإنجيل كلام الله").

ونلاحظ فيها: أن أحداث الروايات قد رتبت بالتسلسل الزمني المألوف للروايات البشرية: الإصحاح كذا / سفر كذا من البداية إلى النهاية ، وكلها تبدأ بعبارات على نمط "يحكى أن " و "في يوم من الأيام" وما إلى ذلك.

وأنصحك – عزيزي القارئ – أن تتصفح بتؤدة صفحات العهد القديم والجديد لتجد العديد والعديد من الأمثلة التي يتكرر فيها نفس النمط الروائي، ولن أطيل عليكم حتى أعرض الصورة المقابلة "التعبير القصصي في القرآن".

* قصة التنزيل :

في ليلة السابع والعشرين من رمضان كان نبي الإسلام محمد – صلى الله عليه وسلم – في غار حراء في أطراف مكة، حيث اعتاد أن يعتكف بحثاً عن الهدوء والسكينة، يتأمل في أحوال قومه، وما هم فيه من سُكْر وزنا ووثنية، وحروب لا تنقطع، وقسوة ومظالم؛ حتى أن المؤرخ الكبير "جيبون" يسجل على أولئك العرب في كتابه: "صعود وسقوط الإمبراطورية الرومانية " قوله:

"إن أولئك الهمج المخابيل لا يختلفون في شيء عن سائر الحيوانات" !!!

لقد كان محمد المتحنث في "غار حراء" يتشوق إلى هدى ينقذ الناس من الضلال، فكان كثيراً ما يسعى إلى الغار: وحيداً معظم الوقت، وأحياناً يظل بصحبة زوجة الرؤوم خديجة أم المؤمنين!

في تلك الليلة، وهي ليلة القدر التي تعم فيها الرحمة أرجاء الكائنات ، وتتصل ملائكة السماء بالأرض ... في منتصف تلك الليلة ، انفتحت صفحات كتاب الله على محمد – صلى الله عليه وسلم – إذ أتاه جبريل الملاك مُرْسَلاً من الله عز وجل ليأمره بلفظ عربى مبين **إقرأ**. والقراءة لغة تعني: القراءة الصامتة لمكتوب، أو النطق بالكلمات.

تملك النبي – صلى الله عليه وسلم – الهلع، واهتز من هول الموقف الذي لم يكن في نظره بعد موقف احتفال او تكريم، وبصعوبة بالغة ارتعد قائلاً: "**ما أنا بقارئ!** "

فأعاد جبريل عليه الأمر ثانية **إقرأ** فكرر النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله :

ما أنا بقارئ، فيضمه جبريل بشدة ويقول:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [العلق : 1]

وهنا فقط يدرك محمد ما هو مطلوب منه حتى ختام الرسالة: أن يردد كل ما يقوله جبريل، ثم يمضي جبريل ليلقنه أربع آيات أخريات :

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [العلق 1 : 5]

ويبدأ بذلك وحي السماء، ويتوالى نزول آيات القرآن الكريم.

والآن ... لعلك تلحظ معي أيها القارئ أني في سردي للحادث الجلل، لم أجد بُدًّا من اتباع المألوف في أسلوبنا – نحن البشر – ابتداء من "الليلة السابع والعشرين" ... إلى ... "ويبدأ بذلك وحي السماء "، مروراً بكل التفاصيل التي استقيتها من القرآن الكريم، وكتب التراث والتاريخ، ومن أفواه الأساتذة والمحاضرين، وقد عرضتها من بدايتها إلى نهايتها في خط مستقيم.

أما التعبير القرآني فهو تعبير فريد ، نمط مغاير تماماً لهذا النمط البشري، لا تجد في القرآن التعبيرات الروائية المألوفة للبشر مثل:

" تلقى محمد الوحي أول ما تلقى عندما كان في الأربعين من عمره"، ولا: "حيث كان معتكفاً في غار حراء"، ولا: "رأي أمامه الملك جبريل"، أو تملك النبي – صلى الله عليه وسلم – الهلع"، أو غير ذلك من ملابسات لقائه الأول مع جبريل، ولا: "إن هذه الآيات الخمس هي أول ما نزل"، ولا ما روته كتب السيرة النبوية أن: "محمداً أسرع عائداً إلى بيته الذي يبعد حوالى خمسة كيلومترات من مكة إلى زوجه الرؤوم خديجة، وروى لها ما حدث وهو يرتجف ويقول: "زَمِّلوني زملوني".

كل هذه التعبيرات ـ على نمط: "يحكى أن... " و "في يوم من الأيام" ـ يسمو النص القرآني عن استخدامها، فهو نص مغاير تماماً لأقوال البشر، هو معجزة لا يحاكيها بشر.

تلحظ أيضا – عزيزي القارئ – أن روايتي كأي رواية بشرية، تبدأ دائما من نقطة لتنتهي عند نقطة زمنية أخرى لاحقة، وليس ذلك شأن القرآن، فآيات الوحي الأولى: (اقرأ التي بدأ بها نزول القرآن، لا نجدها في صدر المصحف الشريف، بل نجدها بتوجيه من الله – سبحانه وتعالى – في السورة السادسة والتسعين، وهي " سورة العلق".

هذا النمط الفريد المغاير لكلام البشر لا نجده إلا في القرآن الكريم، ولا نجده في غيره من الكتب السماوية، لأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي حفظه الله تعالى من التحريف والتعديل منذ نزوله إلى يومنا هذا !!!

* مع عالم نفساني:

أتيح لي أن أتحدث بمعلوماتي عن بداية الوحي مع شاب كندى كنت أصحبه في زيارة سياحية لأكبر مساجد نصف الكرة الجنوبي، وعلمت منه أنه يقوم بدراسات عليا في علم النفس، فسألته على الفور إن كان لديه تفسير لموقف رجل أُمِّيّ، لا يعرف القراءة والكتابة، ثم يُطْلَب منه أول ما يُطْلَب أن يقرأ، فيظل منذئذ يردد كلاما أكبر من إدراكه، وأبلغ من لسانه، كلاما لا يضاهيه قول بشر، طوال ثلاثة وعشرين عاماً (انظر شرح عبارة الإنجيل: " أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" (تثنية 18/18) في كتاب المؤلف: "ماذا يقول الإنجيل عن محمد")

اعترف " عالم النفس " بأن ذلك يبعث على الحيرة البالغة ، فبادرته بقولي: علينا إذن أن نقر بصدق رسالة الإسلام، أو بأنها ليست من صنع البشر، ثم تَلَوْت عليه (معنى) هذه الآيات من "سورة النجم":

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى [النجم : 1- 5]

كما أمر الله نبيه أن يردد على الناس:

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف : 110]

* إعجاز صحفي:

ما إن أقابل صحفياً قادما إلى "المركز الدولي للدعوة الإسلامية" حتى أعرض عليه أن أبرهن على "إعجاز التعبير القرآني"، وهنا ألخص له أولاً قصة موسى عليه السلام بأسلوبنا البشرى المألوف: أسلوب "يحكى أن ..." و "في يوم من الأيام"، مع الإيجاز الشديد هكذا:

" قابل موسى عليه السلام رجلين يتصارعان: أحدهما من قبيلته، و الآخر من أعدائه، فبادر بمساعدة اليهودي في قتاله مع المصري، وفي خضم الصراع صفع موسى المصريَّ صفعة شديدة، فأرداه قتيلاً، فاضطر موسى عليه السلام إلى الهرب من البلاد إلى صحراء سيناء، وعندما وصل "أرض مَدْيَن" وجد فتاتين تطلبان العون فيما تقومان به من عمل، فاستجاب لهما، وعرض عليه "يثرون" والد الفتاتين أن يبقى ليعمل مساعداً له ، ثم زَوَّجَه إحدى ابنتيه، وبعد ثمان سنوات بدأ الملل يتسرب إلى نفس موسى عليه السلام مما عاناه من شظف عيش طويل بالصحراء – بعد أن أَلِف الحياة الرغدة خلال نشأته في قصر فرعون، ثم حياته في المدينة، وما فيها من صخب وحياة ، فحَنَّ إلى تغيير نمط الحياة، واستأذن صهره الذي كان رجلا واقعيَّ النزعة يتفهم دوافع موسى، فأذن له بالرحيل.

رحل موسى مع زوجه وأبنائه، وأخذ معه نصيبه من الغنم والماعز، وبعد فترة من الزمان عاد إلى سيناء لزيارة أهل زوجته، إلا أنه ضل الطريق، حتى نفد ما كان معه من اللحم المقدد، ولم يعد معه من زاد سوى الخبز المجفف الذي يصنعه اليهود، ورغم وفرة ما معه من غنم وماعز ، فلم تكن المشكلة في ذبحها، بل في إيقاد نار ليشوي بها اللحم، فالبحث عن حجر لإيقاد الشرارة، وحطب للوقود أمر عسير في الصحراء (لم تكن هناك ولاعات أو أعواد ثقاب في تلك الأيام)، فأصبح في حيرة شديدة من أمره تزداد يوماً بعد يوم، ولا حَلَّ يبدو في الأفق".

لعلي قد أثقلت عليكم بهذا السرد الطويل رغم أني لم أسرد إلا الحقائق المجردة – على سبيل التمهيد – ودون تنميق أو إطناب لأصل بهذا التمهيد إلى صلب القصة ، ولكني أستميح القارئ عذراً لأنقله نقلة أوضح بها مفهوم التفوق الصحفي قبل مواصلة ما بدأناه.

أقيم على مسافة 30 كيلومترا شماليّ مدينة دربان بجنوب إفريقيا، وقد اعتدت أن أتخذ الطريق الساحليّ في طريقي إلى المدينة كل يوم، وعند تقاطع الإستاد الساحلي الكبير يقف دائماً بائع صحف، يعرض صحيفة شهيرة، وبجانبه لوحة كبيرة تبرز عناوين أهم الأخبار، وبنظرة سريعة إلى هذه العناوين لا أجد فيها ما يغريني للحصول على الصحيفة ، ولكني بمجرد وصولي إلى قلب المدينة بعد ذلك تجذبني لوحات إعلان أخرى لنفس الصحيفة، فأقبل على شرائها!

سألت نفسي مرة عن السر في تغيير قراري مرة تلو المرة فاكتشفت أن الإعلان في المدينة أكثر جاذبية لي، وخاصة في ذلك الجزء الذي يقطنه أسيويون أمثالي، وأدركت أن صياغة الإعلان في الطريق الساحلي موجهة إلى الأوروبيين الذين يكثر ترددهم على الساحل، وهكذا فإن كل إعلان قد صيغ بحيث يجذب اهتمام طائفة من الطوائف العنصرية (التي تعيش في مناطق منفصلة في جنوب إفريقيا).

نخرج من هذا بأن التفوق في التعبير الصحفي يكمن في فهم نفسية المُخاطَب، واختيار الألفاظ والتركيبات الأكثر تأثيراً دون زيادة أو نقصان.

* عودة إلى تحليل التعبير القرآني:

وتعالوا الآن نحلل التعبير القرآني في سرده لقصة موسى عليه السلام لنرى إعجاز التعبير القصصي:

تنزل الآيات على محمد – صلى الله عليه وسلم – ليواجه بها جبهات متعددة: المشركين والمنافقين واليهود والنصارى في مواجهة القلة المؤمنة! فانظر كيف يُصاغ التعبير القرآني ليقرع الأسماع، ويشد انتباه هذه الجبهات المتنافرة في آن واحد ، يقرعها بعبارة :

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [طه : 9] .

عبارة قصيرة تثير كل النفوس، وتشحنها بالترقب لما يتبعها من سياق، فالمسلمون يتحرقون شوقاً لإطفاء ظمئهم من التنزيل الحكيم ، واليهود والنصارى كلهم آذان صاغية يتأهبون للسخرية مما عسى أن يلقيه رجل أميّ لا يعرف عن موسى ما يعرفون في تراثهم وكتاباتهم .

أما المشركون والمنافقون، فيستخفهم المرح والسرور انتظاراً للموقعة الكلامية بين المسلمين وأهل الكتاب.

الكل إذن أصبح آذانا صاغية، فيمضى الوحي في عبارة قصيرة: (**إذ رأي ناراً**)، قمة الإثارة الدرامية!

ثم تمضي القصة بنفس الأسلوب الأخاذ:

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى [طه : 10].

تأمل هذا الأسلوب البرقي (التلغرافي) الذي ينساب كقذائف تشد الانتباه، إنه أسلوب يضاهي أسمى ما وصل إليه التعبير الصحفي في مجال الإعلان ! ذلك الفن الذي يتعلم فيه الصحفي أول ما يتعلم أن يتبع "الأسلوب البرقي" في التعبير.

ولا ننسى أن "فن الإعلان" الذي تفوقت فيه الولايات المتحدة" (والتي تضم أكبر المجتمعات المسيحية وأكبر المجتمعات اليهودية في العالم) لم يظهر إلى الوجود إلا في هذا القرن العشرين، ففي أي معهد صحفي – بالله عليك – تعلَّم محمد بن عبد الله هذا الفن؟!

الجواب واضح: هو أن هذه العبارات ليست من صنع محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي كان يردد حرفياً ما يصبه جبريل عليه السلام في أذنه وقلبه.

كذلك لم يكن هناك ثمة نص عربي للإنجيل أو التوراة في ذلك الزمان حتى يقتبس منه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك ، ولكي نقطع الشك باليقين ، تعالوْا نقارن هذا السرد القرآني لقصة سيدنا موسى بما جاء في نص الكتاب المقدس في مطلع سفر الخروج :

(**وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر مع يعقوب ، جاء كل إنسان وبيته، رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالى وحاد وأشير، وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسًا، ولكن يوسف كان في مصر، ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل**) (سفر الخروج 1/1 – 7).

إن أدنى مقارنة لتنطق بالاختلاف الواضح بين التعبير البشرى في الكتاب المقدس (أسلوب يحكى أن) ، وبين التعبير الإلهي المعجز في القرآن ، ذلك التعبير الذي يتجاوز كثيراً الحدود البشرية لقدرة الرسول ومعرفته !

إلى مزيد من التذوق:

تعالوا أخيرا نستكمل تذوقنا لخصوصية التعبير القصصي الإلهي في قصة موسى – عليه السلام – وقد ضل طريقه في صحراء سيناء، وهو يتطلع إلى نار يشوي بها طعامه، أو قوم يهدونه الطريق، ولكن الله قد أعده لرسالة أسمى من شيٍّ الطعام والاهتداء إلى المكان، فآنس حيرته بنار تلوح في ظلمة الصحراء، ليست ناراً كنار البشر، لعلها ترمز إلى ما يتأجج في أرواح البشر من شوق فطري إلى الحق، كما قد ترمز إلى التوجه نحو مصدر الهدى الأوحد، الله سبحانه وتعالى، أي كأنها نار روحية، يعلن بها الله تعالى مولد رسالة موسى واصطفاءه إياه.

اقرأ وتأمل الآيات القرآنية، وتذوق قمة الإعجاز في التعبير والإيقاع القصير المتناغم:

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى [طه : 9 – 13]

(خلع النعلين: علامة احترام وتوقير، وربما كان يرمز أيضا – مجازا – إلى أن يتخلص موسى عليه السلام من اهتمامه ورغباته الدنيوية متوجها بكل حواسه إلى تلقي رسالة الله تعالى. طُوَى: هو الوادي الذي يرتفع فوقه الجبل الذي تلقى عنده موسى عليه السلام تعاليم السماء)

وختاماً لا أتمالك نفسي من التعجب والإشفاق ممن يقرأ هذا التعبير القرآني فلا يهتز طرباً وإعجاباً، إلا من ختم الله على قلبه وإحساسه، فأصبح لا يتذوق إلا الغَثِّ من القول، وحكايات العَوامّ، كبعض المستشرقين (من نماذج بذاءات المستشرقين يقول توماس كارليل في القرآن: " كتاب مُمِلّ مضطرب فَجّ ركيك غباء لا يحتمل !!!" حاشا لله، وتبت يدا من كتب هذا الكلام وفُضَّ فوه!)، الذين مروا على القرآن سريعاً، ثم أنكروا ما به من إعجاز قصصي يفوق الفنون الصحفية، نقله إلينا النبي الأميّ محمد – صلى الله عليه وسلم – نقلا حرفياً دون تعديل أو تبديل.

إنه معجزة ما بعدها معجزة ، أليس كذلك؟

الفصل الرابع

القرآن معجزة البلاغة

في العربية نقول : " البلاغة الإيجاز" (إضافة للمترجم)، وأوجز الكلام هو ما نسميه "البرقيات". يتسم القرآن بهذا الأسلوب البرقيّ وخاصة عندما يعرض تعاليمه في صورة " سؤال وجواب" وهاك بعض الأمثلة:

في الخمر والميسر: (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** [البقرة : 219]

ألا ترى كيف تصل كلمات الله إلى الهدف مباشرة ؟ وهل هناك أسلوب أقرب وصولاً إلى عقل السائل وقلبه منه؟

الجواب : كلا ، اللهم إلا لدى المكابرين الذين يخاطبهم الله في قوله :

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ [الرعد : 16]

وحتى ندرك ما في الأسلوب القرآني من إعجاز فوق مستوى البشر تعالَوْا نقارن أسلوب القرآن بأحاديث محمد – صلى الله عليه وسلم – في تناولهما لنفس الموضوع: "الخمر".

في رواية أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النهي عن التعامل مع الخمر بأي صورة من الصور يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

" لعن في الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمُشْتَري لها ، والمُشْتَرَى له" (أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة برقم (3381) لأنس بن مالك)

كما روي عنه أيضا قوله :

" ما أسكر كثيره فقليله حرام " (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأشربة (3) والنسائى في سننه كتاب الأشربة (25) وابن ماجه في سننه كتاب الأشربة)

أي أن الإسلام لم يتهاون في رشفة، ولا قطرة من ذلك الرجس اللعين.

قارن بين آيات القرآن، وبين كلمات الرسول – صلى الله عليه وسلم – تجد الفارق شاسعاً، في الأسلوب والبناء؛ بحيث يستحيل أن يكون كاتب هذا هو قائل تلك!! (رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم "أوتِيَ جوامع الكلم" وكان أفصح العرب وأبلغهم، أخرجه البحاري في صحيحه، كتاب التعبير حديث رقم 11 ، ومسلم: كتاب المساجد حديث رقم 5)

ثم قارن أيضا بين تشريع الله الحكيم الذي حفظه الله إلى يومنا هذا في القرآن، وبين ما تجده في نصوص الكتاب المقدس، في نصائح " بولس الرسول" إلى تيموثاوس:

"لا تكن في ما بعد شراب ماء بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" (رسائل تيموثاوس 5/23)

وكذلك على لسان سليمان في وصاياه الدموية إلى جنده لاستبعاد الأمم وإخضاعها :

" أعطوا مسكرا لهالك، وخمرا لمُرِّيِّ النفس، يشرب وينسى فقره، ولا يذكر تعبه بعد " (أمثال 31/6 – 7)

لتعلم أي تحريف بشري انتاب تلك الرسالات.

* في الأهلة:

ننتقل الآن إلى نموذج جديد من البلاغة القرآنية متمثلة في "أسلوب البرقيات":

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ [البقرة : 189]

يقول "عبد الله يوسف علي" مفسراً في ترجمته الإنجليزية: "كان لدى الأقدمين – وحتى يومنا هذا – خرافات كثيرة حول القمر وأحواله ، ينبذ القرآن كل تلك الخرافات (جاء في الحديث أيضا: "أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آية من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا :أخرجه البخاري في كتاب الكسوف 3 ، 9 ، 28، والنسائي: الكسوف 3، 12، 16) ويدعونا للنظر إلى القمر كوسيلة للتقويم الزمني الذي يتيسر للبشر اتباعه بدقة في كل زمان ومكان ، ويتخذه الإسلام أساساً لتوقيت عبادة الصوم والحج".

*** في البر :**

قال تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .**
[البقرة : 215].

في هذه الآية ثلاثة أسئلة ، يجيب عنها القرآن بنفس الإيجاز المعجز :

1- بم نتصدق ؟

2- لمن نتصدق ؟

3- كيف نعطي الصدقة ؟

للإجابة عن السؤال الأول : علينا أن نتصدق بأي شيء طيب نافع مفيد قَيِّم مالاً كان أو متاعاً، أو نقدم العون لضعيف عاجز، أو النصيحة، أو مجرد الكلمة الطيبة، كل ذلك صدقة! أما أن نتصدق بشيء لا قيمة له ولا نفع فليس ذلك بصدقة.

كما لا يجوز التصدق بما قد يؤدى إلى ضرر كالرشوة ، أو تقديم السلاح لمعتوه أو منحرف ، كل ذلك أوجزته الآية في عبارة بليغة:

مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ .

وللإجابة عن السؤال الثاني: عليك أولا أن تقدِّم الصدقة لمن تجب عليك نفقته، ثم لمن هم في أشد الحاجة إليها بعد ذلك .

أما إجابة السؤال الثالث: فيكفيك في الصدقة أن يراها الخالق العظيم بعيداً عن الرياء، على أن تعطيها راضياً مؤثراً غيرك على نفسك متجرداً من الأثرة والطمع.

* في الروح :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسراء: 85]

أكرر بلا ملل: أن القرآن فريد في أسلوبه ، متميز في بلاغته – كما تنطق هذه الآية – عن كل كتاب عرفته البشرية!! أسلوب يصل دائماً ومباشرة إلى الهدف، وإن شئت فقل إلى "بيت القصيد" دون لف أو دوران، ودون استطرادات مملة، أو تفاصيل غثة !

لن تجد بين دَفَّتيه روايات مطولة كالتي ينتج منها أهل الفن "الأفلام السينمائية مثل " شمشون ودليلة" أو "الوصايا العشر" أو "سبارتكوس".

* محمد – صلى الله عليه وسلم – في القرآن:

قبل أن أنتقل إلى نموذج آخر للبلاغة القرآنية، تعالَوْا نقلب صفحات القرآن بحثا عن أي ذكر لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم، أو عن أبيه وأمه، أوصباه، وعن أزواجه وصحابته.

عبثا نعثرعلى أي ذكر مباشر لهؤلاء، بينما نجد سورة كاملة تحمل اسم "مريم" (الناشر: قد يقول قائل: أن هناك سورة اسمها "سورة محمد " وأقول تسمى "سورة القتال" أيضا. ومع هذا فإنها لا تتعرض لسيرته، وإنما: لما أُنْزِلَ على محمد وهو الحق من ربهم ، وذكر فيها القتال) أمّ عيسى عليه السلام، ونجد أن عيسى قد ذكر خمساً وعشرين مرة في القرآن بينما لم يذكر محمد عليه الصلاة والسلام إلا خمس مرات!

وهذا لا يعني أن شأن محمد في القرآن أقل، بل لذلك هدف كبير هو: تبيان ما أُلْصِقَ بالمسيح عليه السلام وأمه من افتراءات تتصل بحمله ومولده، ونبوته، وبطبيعته وموته، جاء القرآن ليصححها، ويبرئ رسل الله وأنبياءه، أما بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فالقرآن شيء، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه شيء آخر، فالقرآن ليس من صنع محمد حتى يتحدث عن نفسه وأهله وصحابته؛ بل هو رسالة رب الكون، حملها وبلغها رسوله الأمين إلى البشر أجمعين .

* في اليوم الآخر :

قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ [الأعراف : 187]

هاك نموذج آخر لبلاغة الإيجاز القرآني، ويكفيك أن تقارن هذا النص بالإصحاح 13 من " إنجيل مرقص" حيث يجيء ذكر "يوم القيامة" في 37 جملة، ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه آية واحدة في القرآن، ويكفي هذا المثال دليلاً على تميُّز النص القرآني عن النصوص البشرية جمعاء!

ولو مضينا في إيراد الأمثلة والنماذج والمقارنات لكتبنا مجلدات! (وقد كتبت مجلدات ومجلدات في الإعجاز البلاغي في القرآن، المترجم)

* السورة الفيصل :

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص : 1- 4]

هذه هي سورة الإخلاص ، وهي أقصر سور القرآن الكريم بآياتها الأربع، بل أن السورة مجتمعة أقصر من كثير من الآيات المذكورة في هذا الجزء.

لهذه السورة مكانة خاصة في الإسلام ، وقد جاء في الحديث الشريف: " **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن"**

ولا تستمد "سورة الإخلاص" هذه المكانة من صوتها وإيقاعها وتعبيرها المُرَكَّز الجَيَّاش الذي يثير الوجدان، ويرهف الحِسَّ فحسب؛ بل تستمد مكانتها من أنها جمعت في ألفاظ قليلة جوهر العقيدة كلها، ومعانيها هي المَحَكُّ والفيصل بين الحق والباطل، الذي تُوزَن به الأفكار والمفاهيم ليستبين ما بها من هدى أو ضلال، تمامًا كما يتخذ صائغ الذهب حجراً خاصًّا يميز به الذهب الخالص من الزائف!

* اللوح المحفوظ :

بينما كنت أستعد للسفر إلى "زامبيا" لإلقاء سلسلة من المحاضرات في منتصف 1975م تلقيت مكالمة من " لوساكا" تؤكد إرسال تذكر السفر الخاصة بي إلى " شركة خطوط جنوب إفريقيا" فتوجهت إلى مقر

الشركة في قلب مدينة "دربي"، وأخبرت موظف الاستعلامات بحاجتي، فأشار إلى مكاتب الحجز بالحاسب الإلكتروني التي يجلس إليها قرابة اثنتاعشر موظفة، فتساءلت إلى أيهن أتوجه؟

فأجاب بشيء من الغلظة لا تتفق مع براءة حيرتي: توجه إلى من شئت!

فتقدمت إلى إحداهن متأملاً في قرارة نفسي: لقد سافرت مراراً من قبل ، ولكنني لا أفهم كيف يستوي أن أجد تذكرتي المرسلة من "لوساكا" لدى هذه الموظفة أو تلك!

المهم ... أن الموظفة كتبت شيئاً على الحاسب ، ثم أخبرتني أن هناك فعلاً "تذكرة" في انتظاري، ثم مضت تستكمل بيانات الحجز وتدخلها إلى الحاسب، بعد أن حددت لها الموعد المطلوب، ونبهتُها إلى الأهمية القصوى لوصولي – أيًّا كان خط السير – حوالي الساعة الثالثة عصراً ، حيث سيكون في انتظارى في مطار "لوساكا" الصحفيون ورجال الإعلام ، لتغطية هذه الزيارة ، فعادت لتكتب حروفاً قليلة على الحاسب ، ثم التفتت إليَّ قائلة:

"من الصعب تلبية رغبتك، لأن ذلك يتطلب تحويل التذكرة من خطوط "زامبيا" إلى شركة أخرى، و الاتصال بخطوط "زامبيا" معطل اليوم بمناسبة عيدهم القومي !!!

وانقلبت بذلك خططى رأساً على عقب ، ولكني مضيت أسألها: من أين استقت كل هذه المعلومات؟!

فأجابتني بأن ذلك يتم عن طريق الحاسب الرئيسي في "جوهانسبرج"، وأن هناك عشرات من الحاسبات الفرعية في مكاتب الشركة المنتشرة في أنحاء البلاد، كلها تتصل بالحاسب الرئيسي متى تشاء، لتستعلم عن الأماكن الخالية، وتحجزها لمن يشاء!

في طريق عودتي تلاحقت الأفكار في ذهني، وذكَّرني ما سمعته عن الحاسب الرئيسي الذي تستقر فيه كل البيانات بتأملاتي في اللوح المحفوظ الذي نزل منه الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم:

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: 21- 22]

إن فكرة الحاسب الرئيسي الذي تستقر فيه كل البيانات تقرب إلى أفهامنا القاصرة تصور "اللوح المحفوظ"!

ولكنني أبادر فأؤكد أن هذا اللوح لا بد أنه مختلف تماماً عن الألواح التي خطت عليها " الوصايا العشر" إلى موسى عليه السلام، كما يختلف عن شاشات الحاسبات وكل ما نعرفه من أجهزة صنعها علمنا البشرى المحدود، إنه "لَوْح" لا ولن نحيط بكنهه!

* نصارى نجران:

حين استقر الإسلام في المدينة المنورة ، وعَمَّ صداه أرجاء الجزيرة العربية ترامى إلى سمع نصارى "نجران" قرب حدود اليمن أن نبياً قد ظهر في بلاد العرب يعلن أنه يتلقى الوحي من الله تعالى، ويَجْهَرُ بالدعوة إلى الدين الجديد، فأرسلوا وفداً إلى المدينة ليناقشوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وينظروا في دعوته في ضوء ما لديهم من معرفة بالله وبالأديان!

أحسن المسلمون استقبالهم، حيث استضافوهم ثلاثة أيام بلياليها في مسجد الرسول – الذي كان في ذلك الوقت بناء بسيطًا من الطين مسقفاً بسعف النخيل!

وجرى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حوار طويل أوردته كتب السيرة، وخلال حوارهم وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالاً قاطعاً:

" أنبئنا يا محمد من هو الله ؟"

لم يتلعثم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يحاور ويداور، ولم يتلاعب بالألفاظ والأفكار، ولم يكن في حاجة إلى التسويف حتى يأتيه الجواب، فقد جاء الوحي لتوه، وكأنه قد اتصل مباشرة بـ "اللوح المحفوظ" (الحاسب الرئيسي على سبيل التقريب)

أقول ثانية: " كأنه" لمجرد التبسيط الشديد (و لله المثل الأعلى، المترجم)، وتلا محمد صلى الله عليه وسلم "سورة الإخلاص" (ارجع إلى أسباب النزول للنيسابورى ، والسيوطي، وتفسير ابن كثير):

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

ومن هذه النقطة عاد أسلوب الحوار من جديد إلى المستوى البشريِّ المعتاد.

الفرق بين الأسلوبين لا تخطئه أذن عربي فصيح:

كلام الله شيء، وكلام محمد شيء آخر تماماً!

آيات الله تنطلق على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وكأن لسانه الشريف "مكبر صوت" متصل بـ " اللوح المحفوظ " الذي اختزن الله فيه القرآن الكريم عند نزوله جملة واحدة ليلة القدر ، في مطلع الدعوة ، حيث قدر له أن يتوالى نزول آياته من " اللوح المحفوظ " إلى محمد صلى الله عليه وسلم مُنَجَّماً (مُفَرَّقًا) طبقا لما شاء الله من أحداث ومناسبات وترتيب.

أعود فأؤكد أن " سورة الإخلاص " وحدها تقف شامخة متحدية أي نَصٍّ دينيّ، وإذا كانت هذه السورة القصيرة تلخص جوهر العقيدة، وتمثل الفيصل بين الحق والباطل، فإن كل ما جاء في القرآن عداها إنما هو تفصيل وبيان لهذا الجوهر والفيص ، الذي يحدد لنا حقائق الألوهية، ويحمي البشرية من ضلال التصور الذي انزلقت إليه مراراً وتكراراً بابتعادها عن عقيدة الحق ومنهج الله!

الفصل الخامس

أسماء الله المعجزة

* ولله الأسماء الحسنى:

الله جل جلاله لا يضاهيه شيء في ذاته أو:

هو الأحد .. وهو الصَّمَد ... وهو الذي لم يكن له مثيل قط، كما بينت لنا سورة الإخلاص.

فكيف إذن تحيط عقولنا القاصرة بما ليس كمثله شيء؟!

إننا إنما ندركه ونتصوره في صفاته وأسمائه، وقد هدانا القرآن الكريم – خاتَمُ كتب الله إلى البشر- والحديث النبوي الشريف إلى تسع وتسعين صفة لله تعالى، يتوجها اسم الجلالة: **الله**.

وهذه الصفات التي نطلق عليها "أسماء الله الحسنى" إنما تُرَصِّع سور القرآن وآياته كقلادة جميلة من فرائد الدر تتوسطها الجوهرة الكبرى "اسم الجلالة" اقرأ معى شطراً من هذه القلادة:

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
[الحشر: 22-24]

قرأنا في هاتين الآيتين " ثلاثة عشر اسماً" من أسماء الله الحسنى، ولا يملك قارئ لهذه الأسماء – فضلاً عن بقية الأسماء الحسنى – إلا أن يدرك ما فيها من جمال وجلال وكمال ، سواء قرأها بالعربية ، أو قرأ نظائرها المترجمة، مع ملاحظة أن الترجمة قد لا تحيط بما في الألفاظ العربية من معنى ومبنى!

بالله عليكم كيف يتأتَّى لأُمِّيٍّ في أمة أُمِّيَّة منذ أربعة عشر قرناً أن يبتكر هذه القائمة من الأسماء، ولم تكن ثمة معاجم ولا موسوعات في جزيرة العرب يستقي منها محمد صلى الله عليه وسلم هذه الألفاظ؟!

يستحيل إذن أن يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم من عقله وخياله، بل هي وحي يُوحَى إليه من خارج ذاته، وأتحدى أي مثقف أو عالم في دين من الأديان – غير الإسلام – وبأي لغة ينطق: أن يجلس ويقدح ذهنه ويكتب ما يتصوره من صفات لله تجاوز أصابع اليدين ما لم يقتبسها من القرآن أو المراجع الإسلامية، تلك إذن معجزة من معجزات القرآن!

* ومعجزة أخرى !

ومعجزة أخرى لهذه الأسماء والصفات أنها لا تضم صفة "الأب"! تسعة وتسعون اسماً تفيض بكل معاني الرحمة والقدرة والتفرد ولا نجد من بينها كلمة "أب" رغم قربها من الأذهان، ورغم شيوعها في الكتب السماوية الأخرى، تلك الكتب التي جاء الإسلام ليصحح ما اعتراها من تحريف بشري (بالأحرى: "تأليف بشري)، ويستبعد هذه الكلمة تماما من قاموس الأسماء الحسنى! يردد المسيحيون في صلواتهم:

(أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض) (إنجيل متى 6/9)

في ظاهر الأمر لا يبدو في هذه الصلوات ما يتعارض مع حقائق الإسلام، بل إننا بسماحة الإسلام نعدها كلمات طيبات، وإن كنا لا نجد فيها ما نعرف من الأسماء والصفات التي تقرب مفهوم " الله " إلى الأذهان!

بل إننا لو قلبنا صفحات الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد لا نجد لله اسما سوى: "الأب" أو "الرب".

وهنا يفترق الإسلام عن كل من المسيحية واليهودية المعاصرة!

لقد كان تحريف معنى كلمة "الأب" في الفكر المسيحى هو بداية "خط الانحراف" الذي أدى في نهاية الأمر، بعد قرون من دعوة المسيح عليه السلام، إلى قولهم: بأن "المسيح هو ابن الله" الذي اتخذه ولداً، وأرسله ليُكَفِّر عن "خطيئة آدم"، بينما لو رجعنا إلى الأناجيل ذاتها لوجدنا مواضع كثيرة تذكر الله أباً لكل خلقه: أي راعياً وحافظاً باراً بمخلوقاته، فهو بنص الإنجيل: "**أبوكم**"، وعلى لسان المسيح : " **أبي وأبوكم**".

وهو بنص الإنجيل أيضا أب لآدم، ويعقوب ، وسليمان، وداود .. إلـخ.

وكذلك بنفس المعنى هو أب للمسيح عليه السلام كغيره من البشر، ولم يرد في الإنجيل ما يفيد أن أبوة الله للمسيح تختلف في شيء عن أبوته للخلائق أجمعين.

إذن هو تغير المعنى وتحريف الدلالة تماماً كما تخرج بعض الكلمات عن مدلولاتها الأصلية بتغير الظروف والزمان ، ونضرب لذلك مثلا بكلمة : "رفيق" وصفة "مَرِح":

الكلمة الأولى لغة: تعنى الصداقة والصحبة، قبل أن يتحول معناها ليصبح لها المدلول السياسي حين تطلق على الشيوعيين ومن نحا نحوهم.

وكذلك صفة "المرح" التي تشير إلى البهجة والانطلاق أصبح مقابلها الإنجليزي (GAY) كلمة بذيئة في الغرب، إن أطلقت على رجل أو امرأة فهي إشارة إلى الشذوذ الجنسي!

هي حقيقة معجزة إذن أن يستبعد القرآن من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين كلمة "الأب"، التي لا غبار عليها في مدلولها الأصلي، حتى يقي المسلمين ما انزلقت إليه الديانات السابقة:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .

[التوبة : 30]

الفصل السادس

العهد الأخير – معجزة التشريع

القرآن معجزة الإسلام الكبرى ، حيثما قلبت فكرك فيه وجدت في كل وجه له معجزة!

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أعرض بعض وجوه الإعجاز التي بهرتني كإنسان عادي، ولا شك أن المجال مفتوح لمن هم أفضلي– من العلماء والباحثين وفقهاء المسلمين – ليجلوا لنا المزيد من أوجه الإعجاز، ولعل عمري يمتد حتى أرى وأقطف ثمار جهودهم.

* الإعجاز التشريعى :

وقبل أن أختم كتابي هذا أعرض لوجه آخر لإعجاز القرآن هو الإعجاز التشريعي:

منذ سنوات مضت فقد "ملك سوازيلاند" زوجته المتوجة، فعكف رجال الكنائس على البحث في التشريعات المسيحية لتحديد الفترة التي يجوز لملك البلاد بعدها أن يتخذ ملكة جديدة.

ولما كان للملك ثمان زوجات أخريات فقد تفرع البحث إلى قضية أخرى شائعة :

متى يجوز لأرملة الملك أو غيره أن تتزوج من جديد؟!

وأمر الملك بعقد مَجْمَع عام لكل كنائس المملكة أملا في الاتفاق على رأي!

سعيت لحضور تلك المناظرة الممتعة ، ومعي أخ مسلم صديق من "سوازيلاند" فأذن لنا.

وفي إحدى الجلسات احتدم النقاش، و توالى المتحدثون يتبارون في مواهبهم الخطابية، وكأن كلا منهم : بيلي جراهام" أو "جيمي سواجرت" (له مناظرات شهيرة مع المؤلف)!

فتجاوب السامعون مع كل متحدث بالتصفيق الحاد، وكلما قام متحدث نقض ما قاله سابقوه، واستهزأ بعقولهم وأقدارهم، وبعد ساعات طوال جاء دوري في الحديث، فبدأت بقولي:

ما زلنا منذ الصباح الباكر ندور حول أنفسنا في حلقة مفرغة بحثاً عن إجابة شافية لقضية مدة العِدَّة للأرملة!

والكل يستشهد مرة تلو المرة بالعهد القديم، ثم بالعهد الجديد، وهكذا بلا طائل!، والسبب هو أن أحدا منا لم يلجأ إلى هذا الكتاب: "المصحف الشريف" الذي رفعته فوق رأسي ليراه الجميع، الذي أسميه مجازاً " العهد الأخير"!

* العهد الأخير!

العهد الأخير – يا سادة – هو القرآن الكريم ، ففي سورته الثانية "سورة البقرة" (الآية رقم 234) سنجد الإجابة الحكيمة:

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [البقرة : 234]

ثم تساءلت: أربعة أشهر وعشرة أيام، أتدرون لماذا؟ صاحوا جميعاً: لا، فاستطردت لأشرح الحكمة المعجزة في هذا التشريع، فأشرت إلى آية سابقة في سورة البقرة تحدد عدة المطلقة بثلاثة شهور للتأكد تماما من عدم حملها (وذلك في حد ذاته إعجاز علمي، وحكمته الإلهية تكمن في أن المرأة الحامل قد تستحيض مرة أو مرتين، ويستحيل علمياً أن تستحيض الثالثة، المترجم):

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ [البقرة : 228]

ولقد زيدَت المدة للأرملة، فوق عدة المطلقة، أربعين يوما إضافية، ولم يكن ذلك اعتباطاً أو ضربة لازب، وإنما لحكمة تبينها الآية الآتية:

وَلاَجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا وَلاَتَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ [البقرة : 235]

الحكمة إذن هي حماية الأرملة من استغلال الرجل لظروفها ونفسيتها، بعد أن فقدت أيضا بمضى الزمن جمالها ورونقها، للإيقاع بها في زواج غير متكافئ يضر بمصالح أبنائها مع زوج لا يحفظ لها قدرها، فهي في حاجة إلى فسحة من الوقت تستعيد فيها توازنها، وصفاء نفسها وفكرها، وتناقش الأمر بهدوء مع أهلها، وتلتمس النصح والرأي قبل اتخاذ القرار السليم.

وبعد ...

هل كان محمد صلى الله عليه وسلم عالماً في الاجتماع، أو خبيرا في التشريع حتى يجيء بهذا التشريع الحكيم؟! كلا بل هو تشريع خالق الكون العليم الحكيم، وما محمد إلا مُبَلِّغ (وفي هذا يقول ربنا سبحانه: (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) [المائدة : 67]) يتلقى الوحي من اللوح المحفوظ ليردده بلا تبديل ولا تحريف إلى البشرية جمعاء:

إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى [النجم : 4]

ثم يستطرد القرآن متحديا أي شك أو ريبة:

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء : 88]

* القرآن يتحدى :

لقد تحدى القرآن البشرية جمعاء عبر تاريخها الطويل منذ فجر الدعوة إلى قيام الساعة : أن يأتوا بمثله؛ فشهد التاريخ بعجزهم، وأثبت أن القرآن **"معجزة المعجزات الشامخة"** التي تنكسر على سفحها كل ادعاءات البشر، ومحاولات التضليل التي لم تَلْقَ إلا السخرية والإشفاق، مثلها في ذلك مثل عبث الأطفال وصياحه ، ابتداء من مسيلمة الكذاب الذي ظن أنه يضاهي القرآن بعبارات مثل:

" الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب قصير، وخرطوم طويل".

إلى أحدث ما ظهر في أسواق النشر من طبعة عربية للإنجيل باسم "سيرة المسيح بلسان عربي فصيح"! حاول كاتبوها أن يقلدوا ألفاظ القرآن وعباراته، ولم ينسوا افتتاح كل جزء بعبارة "بسم الله الرحمن الرحيم"! وتقليد شكل السور والآيات بالمصحف! وأترك للقارئ الحكم على مثل هذه المحاولات!